إهداء

إلى أمتنا العربية العظيمة، نواة خلية العالم الإسلامي التي تناضل في كل مكان، وفي جميع المجالات؛ ليكون لها دورها الحضاري تحت شمس هذا العالم.

عادل

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة المترجم

بعد اندحار أوربا في الحروب الصليبية والاستيلاء على آخر معاقلها في عكا عام ١٢٩١ ميلادية في عهد السلطان المملوكي الأشرف خليل. وبعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح أصبح شاطئا البحر المتوسط الشرقي والجنوبي تحت سيطرة المسلمين عرباً وعثمانيين وأصبح البحر المتوسط من ثَمَّ بحراً للمسلمين.

وقد بدأت حركة ما أطلق عليه اسم الكشوف الجغرافية الأوربية من أجل البحث عن طريق آخر للوصول إلى الهند، ومناطق شرقي آسيا بعيداً عن الجدار العربي الإسلامي.

وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ما بين عامي ١٤٩٧م ـ ١٤٩٩م استطاع الملاح البرتغالي فاسكودي غاما تجاوز رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب القارة الإفريقية والوصول من ثَمَّ إلى المحيط الهندي، وثبَّت البرتغاليون أقدامهم في أكثر من موقع على سواحل القارة الإفريقية الغربية والشرقية وكذلك على سواحل الجزيرة العربية والخليج العربي، وبعض المدن الهندية الساحلية، إضافة للعديد من الجزر المتناثرة في المحيط الهندي. وتبعهم الهولنديون والإنكليز والفرنسيون، وتم الاستيلاء على البقية الباقية من السواحل العربية والإفريقية وعلى شبه القارة الهندية وأندنوسيا وماليزيا والهند الصينية والفيليبين.

وبذلك أصبحت التجارة الأوربية تأتي مباشرة من بلدان شرقي آسيا وإفريقيا إلى أوربا متجنبة المرور بالشواطئ العربية والإسلامية؛ وقد أدى ذلك إلى انحطاط التجارة في مصر والبلدان العربية سواء منها الواقعة على

شواطئ المتوسط أو على شواطئ بحر العرب والخليج العربي. وقد أدى تدفق الثروات على أوربا سواء أكان ذلك من بلدان شرقي آسيا أم من الأمريكيتين إلى زيادة قدراتها العسكرية، وبامتلاكها لناصية العلوم أمّنت تفوقاً عسكرياً على الدول الإسلامية بشكل عام، وعلى الدولة العثمانية التي كانت المدافع الرئيسي عن الحضارة العربية الإسلامية بشكل خاص.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر بدأت الحكومات الأوربية ترسل الرحالة والمبعوثين إلى البلاد العربية والإسلامية بذرائع مختلفة، لعل أهمها الكشوف الجغرافية والبحث عن الآثار، ولكن معظم هؤلاء الرحالة كانوا في الحقيقة جواسيس من أجل دراسة أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والمذهبية وإيجاد السبل التي تساعد على استعمارها.

وتندرج رحلة غيرترود لوثيان بل ضمن هذا الطراز من الرحلات، وقد أدت غيرترود هذه دوراً في رسم السياسة البريطانية في بدايات القرن العشرين، وأثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، وكذلك في تنفيذ معاهدة سايكس بيكو التي تم بموجبها اقتسام البلاد التي كانت خاضعة للدولة العثمانية بين الفرنسيين والإنكليز، وإقامة بعض العروش في البلاد العربية. ويستطيع القارئ بسهولة أن يكتشف تركيزها على التباين العرقي والمذهبي في المجتمع السوري آنذاك؛ الأمر الذي يفسر تمزيق بلاد الشام فيما بعد إلى دويلات على أساس طائفي ومذهبي، والتمهيد لإقامة كيان قومي يهودي فيما بعد.

ومع ذلك فإن الكتاب وقد طبع في عام ١٩٠٧م يقدم صوراً عن جوانب من حياة المجتمع السوري في تلك الفترة، وعن أوضاع الدولة العثمانية والطبقة الحاكمة، إضافة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وصوراً من حياة الناس والسلام.

المترجم: عادل زكار

التعريف بالمؤلفة

غيرترود مرغريت لوثيان بل (١٨٦٨م - ١٩٢٦م)

GERTRUDE MARGARET LOWTHIAN BELL

رحالة إنكليزية ومبعوثة إلى البلاد العربية. ولدت في واشنطون هول، كونتي دورهام في الرابع عشر من تموز عام ١٨٦٨م وهي ابنة السير هوغ بل، بارون. كان عملها اللامع في اكسفورد حيث كانت الأولى في التاريخ في عام ١٨٨٧م. وقد تابعت دراساتها بعد ذلك في طهران حيث كان عمها السير فرانك لاسيلس (SIR FRANK LASEELLES) وزيراً مفوضاً في السفارة البريطانية في إيران. ثم عادت إلى إنكلترا حيث أمضت عقداً من السنين في النشاطات السياسية والفكرية في المحافل البريطانية والأوربية، واستمر ذلك حتى عام ١٨٩٩م حيث انغمست في الأمور المرتبطة بالأنشطة العربية الأمر الذي أكسبها شهرة كبيرة. وقد زارت في ذلك العام فلسطين وسوريا لتعود بعد ذلك إلى الشرق الأوسط عدة مرات طوال العقد التالي، ولتمتد رحلاتها إلى آسيا الصغرى (تركيا الحالية) ولكن قلبها كان يحثها على القيام برحلة إلى الجزيرة العربية التي بدأتها في عام ١٩١٣م، لتكون المرأة الثانية التي تزورها بعد الليدي بلانت. فزارت حايل حيث لم تستقبل استقبالاً حسناً ومع ذلك فقد بقيت دائماً تفضل سلالة ابن رشيد لحكم نجد بدلاً من ابن سعود. ولكنها لم تكتب أبداً وصفاً مفصلاً عن هذه الرحلة، مع أن معظم إنتاجها الأدبي كان في العشرين سنة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وهو إنتاج

معتبر ويشمل كتاب سفر نامه الذي كتبته عام ١٨٩٤م، ثم نشرت ترجمة لبعض أشعار حافظ الشيرازي عام ١٨٩٧م.

ثم كتاب الصحراء والمعمورة عام ١٩٠٧م، ثم كتاب كنيسة وألف كنيسة عام ١٩٠٩م، ثم كتاب من عامورة إلى عامورة عام ١٩١١م. وكانت دائماً مراسلة ضخمة الإنتاج، ورسائلها مشذبة جداً بحيث تلائم الناس الأكثر حساسية ودقة. وقد تم طبعها في مجلدين من قبل زوجة أبيها عام ١٩٢٧م، ولكن لعل أعظم أعمالها هو تقريرها الرسمي البارع جداً حول الحكم في منطقة ما بين النهرين (العراق) في الفترة التي أعقبت الهدنة ما بين عام ١٩١٨م والثورة العراقية عام ١٩٢٠م. وبعد فترة قصيرة من العمل المرتبط بالحرب في إنكلترا وفرنسا. انغمست في سياسات الشرق الأوسط المضطربة والمتعثرة. وبشكل خاص في بلاد الرافدين : حيث خدمت تباعاً تحت إمرة السير برسي كوكس، ثم السير أرنولد ولسن، ثم السير برسي كوكس مرة أخرى، حيث مارست عليه تأثيراً كبيراً لا يمكن إنكاره. وأدت دوراً كبيراً في تدعيم حكم الأسرة الهاشمية في العراق. وقد كرست السنين الثلاث الأخيرة من حياتها في تأسيس متحف للآثار في بغداد، الذي يُعد أثرها الضخم في البلد الذي أحبته وخدمته على نحو جيد جداً. وتوفيت في بغداد في ١٢ تموز عام ١٩٢٦م.

عن الموسوعة البريطانية

الإهداء

إلى : ا. س. ي

الذي يعرف قلب الشرق

obeikandl.com

قــال تـأبــط شـــــراً:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي

بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

obeikandl.com

تقديـــم

أنا مـدينة بالاعـتـذار إلى أولئك الذين يطمعـون إلى إضـافـة سـفـر جـديد لأدب الرحـلات الواسع مـا لم يكونوا مثقفين أو سياسيين، واعـتذاري جاهز، وهو معقول ومقبول ظاهرياً كمـا آمل مثلمـا يجب أن تكون عليـه هذه الأمـور. لقـد رغـبـت أن أقـدم كـتـاباً ليـس كـبـيـراً جـداً عن الرحلـة كنـوع مـن الوصـف أو التقدير أو الاعتبار للناس الذين قابلتهم أو رافقتهم في طريقي، ولأظهر طبيعة عالمهم الذي يعيشون فيه. وكيف يبدو هـذا العالم لهم وحيث إن من الأفضل أن يرووا قـدر الإمكان حكاياتهم بأنفسـهم، فـقـد سلكت كلمـاتهم على حـبل الطريق، معـيـدة القـصص كمـا سـمـعـتهـا منهم، هذه القـصص التي يتحـدث بهـا الرعـاة والجنود ليـزجـوا أوقـات فـراغهم، وسـاعـات سيـرهم على الطرقـات. ذلك الكلام الذي يمـر شـفـافـاً من فم إلى فم حول نار المخـيم وفي بيـوت شـعـر البـدو، وفي مـضـافـة الدروز. ومثلمـا يـحـدث أيضـاً في مـجـالس الأتراك والرسـميين السـوريين الأكثر حذراً وحيطة. ويتـألف فن الحكم عندهم من التخـمينات ومقدار كـاف غالباً من الدهـاء والنتائج التي يمكن أن تقـفـز عن القوى المتعـارضة غير المعـروفة، حيث القوة غامضة وعصية على الفهم وكذلك الهـدف. وحكمـتهم حكمـة أنـاس تـخـتلف أقيسـتـهم وأقنيـة مـعـرفـتهم إذا أردنا المقارنة عن أقيستنا وأقنية معارفنا. وهـي تقدم مجموعة مختلفة من التصورات المسـبـقـة تتـوضع فـوق المعـضـلات التي تعـتـرضـهم. والشـرقي مـثل طفل كـبـيـر، وهو جـاهل بكثـيـر من فـروع المعـرفـة التي بتنا نعـتـبـرهـا كضـروريات أولية، وذهنه غـالبـاً وليس دائماً ـ قليل الاهتمام بالحـاجة إلى اكتسابها. ونادراً مـا يشغل نفسـه بكل ما ندعوه نحن أشيـاء عملية ومفيدة. وهو ليس عملياً إذا أردنا التعبير بدقـة أكثر من

طفل. وما يقبل به يختلف عما نقبل به نحن. وعمله من جهة أخرى تحكمه تقاليد سلوك وأخلاق تعود إلى بدايات المدنية. تقاليد لم تتبدل حتى الآن أيّ تبدلٍ هامّ في أسلوب الحياة الذي يطبقونه أو بعيداً عن مجال نشأتهم. وإذا أخذنا هذه الأمور جانباً. فهو إنسان مثلنا فالطبيعة الإنسانية لم تخضع لتبدل كامل شرقي السويس. وليس من غير الممكن إقامة علاقات صداقة طيبة أو عاطفية مع السكان في تلك المناطق، وهي من بعض الجوانب أكثر سهولة منها في أوربا. وسوف تجد أن علاقات التواصل الاجتماعي في الشرق أقل تقيداً بالمظاهر وأكثر تسامحاً، وهذا عائد لعظم التنوع الاجتماعي، فالمجتمع ينقسم إلى طبقات وطوائف دينية ومذاهب، وقبائل بأعداد غير محدودة من المجموعات كل واحدة منها تتبع وتعيش وفق أنظمتها الخاصة وقوانينها. ومهما بدا هذا غير واقعي بالنسبة لتفكيرنا فإنه بالنسبة للشرقي رحب يتسع لحوار كل الخصوصيات الثقافية والعرقية واستيعابها. فقد يعيش إنسان بين الناس ملثم حتى العينين أو نصف عار لا يرتدي إلا إزاراً. ولا يثير الأمر أي ملاحظة أو استغراباً في الحالين. ولماذا يثير ؟ فهو مثل غيره يتبع قانونه أو عاداته الخاصة. وقد يسير الأوربي أيضاً هنا وهناك وفي أكثر المناطق وحشية دون أن يثير استغراباً كبيراً أو حتى نقداً على نحو أقل. سوف يستمعون إليه باهتمام كما ستحظى أخباره وآراؤه بالإصغاء والتقدير، ولكنه لن يُعد شاذاً ولا مجنوناً أو حتى مخطئاً؛ وذلك لأن ممارساته وطرق تفكيره مختلفة عن تلك الموجودة بين أولئك الناس الذين وجد نفسه بينهم. إنها عاداته! ولهذا السبب من الحكمة بالنسبة للأوربي أن لا يحاول نيل الحظوة عند الشرقيين بالعمل على تقليد عاداتهم ما لم يكن ماهراً جداً بحيث يستطيع أن يمر وكأنه واحد منهم. يجب أن يتعامل مع عادات الآخرين باحترام

شديد. وهو سيحظى بأعظم الاحترام إذا بقي متمسكاً بعاداته بدقة. وترتدي هذه القاعدة بالنسبة للمرأة أهمية قصوى، وذلك لأن المرأة لا تستطيع أن تخفي شخصها بسهولة أو على نحو فعال؛ ذلك لأنها يجب أن تكون على دراية بأنها سوف تفد على عرق نبيل ذي عادات لا تنتهك حرمتها، ومن الأفضل لها أن تعطيها حقها من الاحترام.

لا يوجد قطعة من البلاد التي زرتها يمكن اعتبارها أرضاً عذراء بالنسبة للرحالة، مع العلم أن ثمة مناطق لم تُزَر إلا نادراً. وقد تم وصفها في أعمال من الصعب والمكلِف الحصول عليها. ولم أُعط هذه الأماكن إلا اهتماماً محدوداً. عدد محدود من الصور كلما بدا الأمر ضرورياً. كما أخذت بعين الاعتبار مدن شمال سوريا الغنية بآثار العصور القديمة المذهلة التي تلفت نظر الملاحظ العرضي. وما تزال هناك مناطق واسعة تحتاج لمزيد من الاستكشاف في سوريا وعلى حافة الصحراء. كما لا يزال هناك العديد من المعضلات التي يجب أن تحل. لقد بدأ علماء الآثار: فوك، فيتز شتاين، برونو، ساشو، دوسو، بوخشتاين وزملاؤهم، وأعداد من بعثة جامعة برنستون الأثرية وغيرهم العمل في العديد من المواقع في سوريا، وأنا أشير بكتبهم لمن يريد أن يعرف كم هي غنية هذه البلاد بالآثار المعمارية على نحو لا يجارى، وبالنقوش المسجلة لتاريخ قديم بعيد متصل.

لم تنته رحلتي في اسكندرون مثلما انتهت قصتي هذه. في آسيا الصغرى كنت مهتمة بشكل رئيسي بالآثار على أي حال. وقد طبعتُ نتائج الأعمال التي قمت بها هناك في سلسلة من المقالات في مجلة (الأعمال الأثرية) حيث وجد رئيس تحريرها السيد ـ سليمان رياشي ـ متلطفاً أن نشرها في مجلة يتيح مجالاً للاطلاع عليها أكثر من نشرها في كتاب كهذا.

أنا لا أعرف الناس ولا اللغة في آسيا الصغرى على نحو كاف يسمح لي أن أكون على تماس قريب من البلاد. ولكني عرفت من خلال ما حصلت عليه من معرفة ضئيلة ما يتمتع به الفلاح التركي من مواهب طيبة وكرم أصيل تعطيه علامات قيمة أكثر بكثير من الآخرين.

أشعر ببعض الآلام وأنا أروي بعض الظروف السياسية الواقعية لبعض الأشخاص القليلي الأهمية، والذين لا يبدون كذلك لمن يعيشون في وسطهم. ومن جهتي كنت دائماً أشعر بالامتنان والعرفان بالجميل لأولئك الأشخاص الذين كانوا لي بمثابة مفاتيح لمعارفهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض. ولكني غير معنية بمحاكمة أو إدانة الحكم التركي. وقد عشت فترة كافية في سوريا لمعرفة أنه بعيد جداً عن كونه الحكم المثالي، ورأيت عدداً كافياً من العناصر المتمردة الذين استطاع أن يبقيهم بطريقة أو بأخرى خاضعين أكثر أو أقل للنظام وأن أعرف أن وضعه صعب، وأنا لا أعتقد أن هناك حكومة تستطيع أن تنال رضا جميع رعاياها، وفي الواقع نادرة هي الحكومات التي استطاعت تحقيق هذه الرغبة حتى في بلاد أكثر اتحاداً. وأنا مقتنعة بكوني إنكليزية بأننا الشعب الذي يستطيع أن يأخذ سوريا على نحو أفضل مع إمكانية في النجاح أكثر من ذلك الذي يمكن أن تحققه أي حكومة، معتدلة معقولة للسلطان[1]، وقد عرفنا منذ وقت طويل أن العمل لم نبدأ به، بل لقد عملنا

(١) لا تخفي المؤلفة هنا أطماع الإنكليز في احتلال سوريا، وقد تجلى هذا فيما بعد بمعاهدة سايكس بيكو التي عقدوها مع الفرنسيين عام ١٩١٧م وخططوا من خلالها لاقتسام البلاد التي كانت خاضعة للسيطرة العثمانية، وقد مشى قسم من العرب والمسيحيين منهم بشكل خاص مع هذه المخططات بعضهم بوعي وبعضهم بدون وعي، وقد تم تنفيذ هذه المخططات بالكامل بعد الحرب العالمية الأولى، ونعم العرب الفلسطينيون بالاحتلال الإسرائيلي لبلادهم والتشرد والسكن في المخيمات وربح الموارنة دولة في لبنان. (المترجم).

لسوء الحظ ما هو أسوأ من ذلك، ففي جميع أنحاء الممتلكات التركية عملنا على إضعاف سمعتنا وتدهورها بعد أن كانت جيدة جداً. حديث رفضنا القبول بمسؤولياتنا فيما يتعلق بالمسألة الشرقية، وضرورة تدخلنا، بل وسمحنا بالاحتجاجات التي يعوزها الحس بالمسؤولية أن تعبر عن نفسها بشدة على نحو عاطفي.

وأنا أسمح لنفسي أن أُقيّم هذه السياسة باعتباري جاهلة فأقول: إن تعاملنا مع الأتراك أظهر جواً من التذبذب والتردد بحيث يُعذَرون لو اعتبرونا خائنين وأن ينظروا إلينا بعداء. هذه المشاعر مقترنة بفرع كامن عميق من إمبراطورية آسيوية ضخمة هي في الوقت نفسه سيدة على مصر وعلى البحر[1]، قد جعلت الباب العالي ـ كما أرى ـ ينتهز أول فرصة لفتح باب المقاومة للمطالب الإنكليزية سواء حدثت عن خطأ حسابي بسيط للروح التي أمّلتها أو بأمل مساعدة خارجية لم تحسم أساساً. والنتيجة باعثة على الأسى في الحالين. وإذا أردت أن أُقيّم المسألة كلياً، وعلى نحو دقيق، فإن جذرها يكمن في اختفاء النفوذ الإنكليزي في إسطنبول.. فموقع المسؤولية الذي كنا نشغله سابقاً قد احتله آخرون، نعم إنه كذلك، ويجب أن يكون موضع اهتمام عميق من قبلنا أكثر من أي دولة أخرى، وأننا يجب أن نكون قادرين على توجيه سياسة قصر يلدز المتمعجة[2] عندما يكون ذلك ضرورياً. إن أعظم القوى الإسلامية لا تستطيع تحمل ترك تنظيم علاقاتها مع خليفة المسلمين على نحو قليل التماسك والقوة بهذا الشكل. وإذا كان عناد السلطان في نزاع

(١) تقصد المؤلفة هنا الإمبراطورية البريطانية.

(٢) المتمعجة: الملتوية.

طابة يمكن أن يبرهن لنا مقدار انزلاق العرش من بين أيدينا، فإنه يمكن أن يفيد بالعودة. إن وجودنا كقوة مسيطرة في البحر المتوسط، وحصولنا على ما نريد ـ كما أعتقد ـ مرتبط بقدر كبير بالنوايا الطيبة داخل الإمبراطورية التركية، وذكريات الصداقة القديمة، ولن يكون من الصعب أن نسترجع الموقع الذي فقدناه.

ولكن هذه القضايا بعيدة عما يحتمله كتابنا هذا، وسيصل اعتزازي إلى أفضل نهاية بالتعبير الذي يبدأ به كل كاتب شرقي كتابه بالقول : (بسم الله الرحمن الرحيم).

موت غريس بريوري

openkandl.com